المكان في شعر حامد عبد الصمد البصري

((تراتيل الأيام المنسية)) أنموذجاً

م. م. ورود حامد البصري
المديرية العامة للتربية في محافظة البصرة

الملخص:

المسألة الجوهرية في التعامل مع المكان ، هي في تلك الجمالية ، التي تظهر خصائصه ، عن طريق التفاعل الخاضع من توجيه الإيحاء ، الذي يضع المتلقي في إطار من التصورات ، تثير نمطاً آخر من أبعاد المكان ، وتجليات الزمن ، في تمثيله حقيقة أخرى ، ترتكز على تداخل العاطفة ، إذ تتماشى والحالة التي يرتئيها المبدع، في تحديد ماهية المكان، فـ(المدينة، القرية، النهر، الغابة).

المقدمة

يشكل المكان موضوعاً مهماً في الأدب على وجه العموم ، إذ يعكس بُعد تفكير الكاتب من الجوانب كافة ، بما يبثه من رؤى فكرية تستنطق مخيلته ، فيترجم إحساس الذات إلى لغة أدبية تنزح نحو معنى دلالي ، بإعادة ذكريات قد مضت، وطَرْق حاضرٍ يتوزع بين الحنين إلى ذلك الماضي، والتوقف عند اللحظة الآنية / لحظة الكتابة .

المسألة الجوهرية في التعامل مع المكان ، هي في تلك الجمالية ، التي تظهر خصائصه ، عن طريق التفاعل الخاضع من توجيه الإيحاء ، الذي يضع المتلقي في إطار من التصورات ، تثير نمطاً آخر من أبعاد المكان ، وتجليات الزمن ، في تمثيله حقيقة أخرى ، ترتكز على تداخل العاطفة ، إذ تتماشى والحالة التي يرتئيها المبدع، في تحديد ماهية المكان ، فـ (المدينة ، القرية ،

النهر ، الغابة ، الخ) ، هي التي تختزل الفكرة بتفاصيل وهج الذاكرة ، بما تبثه من وقائع ، بجمل شعرية ، ذات فاعلية ودلالة شعرية في تأدية المعنى وتعميقه. كما ينزح المبدع عن مكانه الحقيقي الواقعي، ليتجه إلى مكان بمعطياته الخيالية، فتتسامى لحظة الإدراك والخيال ، لتنتج وعياً مشتركاً ، فتأرجح المكان بين الواقع والحلم ، يمنح معرفة أكثر ، بانتماء الذات لحقيقة غير قابلة للانغلاق، برؤية لها القدرة على صياغته بلغة شعرية تدور في فضاء التجربة الإبداعية .

يحظى (المكان) في شعر (حامد عبد الصمد البصري) ولاسيما في ديوانه (تراتيل الأيام المنسية) ، بخصوصية الهوية ، بما تركه من لوحة شعرية تقترن بالمكان الخصيبي وعبق تلك النشأة ، إذ مثلت اللغة الشعرية جمالية التعبير التي ما أن يقف عندها المتلقي حتى يحلق في آفاق ذلك الجو الريفي النقي. فاستحضار مدينته / البصرة ، كان باعثاً أساسياً، ومسوغاً من مسوغات الواقع الذي عكس تلك الشخصية الأدبية ، مثلما أفرزت مبدعا ، لايتماهى في تصوير الواقع، ولا يغفل عن تأثير الخيال فلا ينهض المكان إلا من خلال كتابات المؤلف ، في حدود ما ينجزه ويبدع فيه [1] .

يفتتح الشاعر ديوانه بقصيدة (الغرق خلف ألوان الصمت) ، التي تحمل مفردات تعوّل على دلالة المكان من دون أن تفصح عن ذكر أسمه :

زرته أمس .. كان وحيدا
تلوح أهدابه
– استرح – فاسترحتُ
أحاولُ لكنني حائر
كيف يستأذنُ العاشقُ الطفلُ
من سيد الشعر والحب ..؟ [2]

تمثل الزيارة ملمحاً آخر من ملامح المكان التي تستند إلى خاصية الاشتراك بين الذات والآخر، تنتج استجابة هي امتداد حركة التفاعل الإيجابي

بينهما، مثلما تعمل الاستراحة على الإشارة إلى أن ثمة مكان للجلوس. بيد أن الحيرة تدب في حنايا قلب الشاعر، بما يبعثه من منولوج داخلي عبر تساؤل بكيفية استئذان العاشق/الطفل من سيده/الشعر،الذي يعمل على أنسنته فيدعوه بـ:

سيدي
دفء عينيك صمت أليف
يدغدغ كل زوايا المحبة ..
كل الحواس يداهمها
آه يا سيدي (3)

فهيأت إيحائية الألفاظ مفهوماً مكانياً، يتعلق بذاكرة الشاعر التخيلية، وتجسيده اللحظة الشعرية التي تمت إلى واقع يعيشه. إلا أنه ينسحب من ذلك الواقع ، ببوح مؤثر يتصارع مع الذات المتألمة، ليشهد النص عاطفة حقيقية تسمو بعمق الإحساس في تجسيد عالم ملموس:

سيدي
أيها المترفق في خطواتك
بح بالذي أنت فيه .. ؟
تكوم شيئاً
...
فشيئاً وقال :-
بعيداً ..
بعيداً
طوتني السنون
إنني في وميض المحطات أمضي
إلى ما غير جهة
مثلما الموج

يصعد ..

... يهبط

يسكن كالحالمين[4]

تداخل فعل البوح مع موضوعة المكان / الترفق في الخطوات / الشارع، الذي يهيمن عليه طابع الألم في عملية من التكوم. إذ تتراكم الأحداث في الذاكرة ، فيشهد المعنى ارتفاعاً لحضور المكان في مفارقة شعرية مع زمن مضى بتوالي الذكرى، بدلالة ما (طوتني السنون) ، ليؤكد الشاعر ضياعه بمضيه في جهة غير محددة بمكان ما ، لما تشير إليه المحطة من سفر غير مقصود باتجاه معروف ، وبما يمثله فعل (السير) ، بأنك كلما مضيت فيه زادك بعداً ، بينما أنت تسير إلى الأمام [5]. فثمة بلاغة ترسلها اللغة إلى غموض المكان، كما الموج الواسع بمده وجزره ، فيرتئي الشاعر له مكاناً غير حقيقي. إذ يتأمل المتلقي نصاً بين مكانين يندرج تحت اليقظة والحلم في مضمار التركيب اللغوي بـ (يسكن كالحالمين) .

وفي إحدى مقاطع قصيدته المعنونة بـ (ماذا أفعل) ، يتماهى صراع الذات وقلق الروح مع المكان الذي أوصدته الريح :-

ماذا أفعل

لو أفتح شباك الروحْ

يقرأ أوراق كتاب الأحبابْ

يلمحُ في عينيه ،

زهوراً ..

و .. إلى آخره ..!

لكن يد الريحْ

القت ما فيها

فانسدّ البابْ .. ؟[6]

يتجه خطاب الذات نحو بنية المكان /الشباك ، الذي يمت إلى نفسية الشاعر الايجابية ، بتعالقه بروح الأحباب ، التي تحيل فيها مفردة (اللمح) ، إلى ضياء متوهج ، فتلمح العين البصرية أجواء من البهجة ، ما ينم عن صورة مرئية ،على وفق معطيات بلاغة الزهور، وصور أخرى لم يشأ الشاعر أن يذكرها، فترك نقاطاً، دلالة الحذف. ولفظة (إلى آخره) ، تشير إلى أن بقايا مشاهد قد يبصرها المتلقي من خلال خياله، والتي لها دلالاتها في مسار المكان، ثم تتحول بنية المكان إلى سلبية الواقع ، إذ يوصد الباب ، بفعل الريح وكأنها قد أحالت كل شيْ جميل إلى رماد تناثر في الهواء . فضدية المعاني من (الانفتاح والانغلاق) ، أسست ترابطاً يتماثل وحالة الإنسان في (التفاؤل والتشاؤم) ، إزاء واقع يحياه، يتماوج بين فرح وألم أثر تقلبات الحياة ، فالمكان لا يقف عند تسطحات الشيء وأشكاله المرئية بقدر ما يحتوي الأثر الداخلي بعيداً عن الأشكال المألوفة [7] .

يلح الشاعر على تصوير مشهد الغرفة في قصيدتين من ديوانه (تفاصيل لم تُنشر)، و(العناوين قبل كل شيء) ، إذ يتحدث في قصيدته الأولى عن ذلك المكان، على وفق حاضر آني يرضخ للحظة الكتابة عبر زمن مضى. إلا أن المعنى الدقيق المكثف بجمالية الدلالة الشعرية شكل تحولا آخر ، لآلية المكان الذي بقي متجدداً شاخصاً في عيون المدينة / البصرة ، عبر شريط من الذاكرة، أسبغه بجو متناغم في تشكيلة من الصور الفاتنة:

هاهو الآن يسكن في غرفة

خبأت سحرها

حاصرته الحرارة فيها

فقايضها

بالكتابة يفتض أثوابها

.....

وجهه

شاخصٌ في مدينته

يختفي في الدروب

منذ عشرين عاما

يلوح للخالق الفرد

– مستوحدا–

إنني أحتمي بالنخيل النخيلْ

ليس لي عن هواه بديل (8)

فعل الكتابة في النص الشعري ، أسهم بإلغاء سكونية المكان/ الغرفة ، ليقف الشاعر على معالم الذات الأخرى ، إحساساً بها ، التي تجعل للمكان خصوصية من خلالها ، وبتأثير موح ، يجسد حالة وصفية ، لتلك الدروب ، بتكرار (النخيل) ، لما تمثله من ظاهرة جنوبية .

أما في قصيدته (العناوين قبل كل شيء) ، يبدأ الشاعر قصيدته بطريقة سردية عن طريق استرجاع الماضي بالفعل (كان) ، مشخصاً الزمن والمكان الذي ربطه بصديقه (محمد خضير). فتداعيات الذاكرة أدى إلى ازدواجية مكانين ، روحي / داخلي ، وآخر /خارجي ، والذي لعب المكان الروحي دوره في إزاحة المكان الخارجي ، إذ أعلن أهمية المكان على وفق حضور الجانب الإنساني :–

كان يمشي معي في زوايا مساء

جذعه

باتجاه المدينة ..

.....

الشوارع ريانة

سفحت عطرها

حرّكتْ نبضه
للحديث فما كان خطو الرجاءْ
غير صحوٍ .. يوحّد فيه البقاءْ (9)

العاطفة بين الشاعر وصديقه كانت المحرك الخفي لحضور المكان الواقعي، بدلالة (يمشي ، المدينة ، الشوارع) التي عملت على تناغم الصورة في دعم المؤثرات النفسية وتحريكها ، بلذة التأمل والدلالة البلاغية لـ (ريانة ، عطرها ، حرّكت نبضه) ، بينما أدت الشراكة دوراً لإنتاج نص مؤثر بإيحائية المكان (10).

في حين يبحث الشاعر حامد البصري في القصيدة ذاتها في التفاصيل المرئية لـ (الغرفة) من خلال ربطها بالفضاء الإنساني، وبتجربته الشخصية عبر رؤية سردية ، تجسد قيمة المكان وتجلياته(11) :-

على ألق الذكرياتْ
غرفة
سيّجت غرفة
تحت بوابة من غرفْ
مسني أمس وهج الطفولة والسنواتْ
لم أكن بالمصدق
لا .. لن تشيخ
أرى فوق كفي أحاديثها (12)

توحي لغة النص تصورات ذهنية عبر استدراج الفكر إلى الأمكنة المتداخلة، ابتداء من الغرفة الأولى التي تمتد بعدها إلى مساحة من الغرف المتداخلة، وكأن الشاعر يدخل المتلقي في مغارة ، يصعب عليه معرفة عدد الغرف، فالتصور الدلالي أنتج تفاعلاً قائماً بين المكان المتخيل، ووهج الطفولة، عبر سياق جمالي ينفي سنين العمر الماضية، من خلال فعل بصري، واستعارة

غريبة، تجعل من المكان غير قابل للهدم والتغيير ، إذ حلت به أحاديث العمر الندية، فبين الذاكرة والمكان ،علاقة إقامة متبادلة ، فيمتزج الطرفان في لحظة زمنية منفلتة ، ثم يعاودا فور انقضائها ، كل إلى حياته الخاصة ، إذ ينسحب كل منهما إلى ضفة [13].

بيد أن قصيدة (عود الأرض لا يموت) ، المهداة إلى القاص (محمود عبد الوهاب) ، يكمن فيها حضور قوة المكان بأسلوب رشيق العبارة، يمتزج مع العنوان في إضفاء الحقائق الإنسانية التي تشكل الأرض ، المكان الواقعي. مثلما يشهد الإنسان فيه التحولات الكبرى منذ الصغر حتى فنائه. فتجليات المكان شكلت مرجعاً أساسياً في مضمون هذه القصيدة ، إذ أعادت النظر في أبعاد زمن مضى ، فيما يتسع المكان إثر ذاكرة لاتلغي الأحبة لبعد المسافات ، فيتلاشى الحاضر ليطل الشاعر على مكان الأمس :

كنت أبصره
في تواصله
ماله من مدى
غير ذاكرة ،
تتوقف عند نقاط الخيال
.....
مرة
في قراءاته
غابة الليل قالت له:-
المواعيد
تتكسر الآن
لا غاية فوقها

تحتها

تتبدد أنفاسها

فوق حمى الرجاء (14)

يفصح الشاعر عبر فعل (التواصل) ، عن التحام المكان بالزمن الماضي على وفق ذاكرة تتوقف عند حدود الخيال ، حيث البلاغة الموحية التي يتلقاها العقل الباطن ، بما تبثه عبارة (غابة الليل) بتمحورها حول موضوعة الوحشة والحزن. فتغلب سواد المكان جاء مروضاً لإلغاء واقع الشاعر المتسم بالوحدة، لتحل الذاكرة مكاناً آخر يسهم في إعادة النشوة والحيوية لذاته المتألمة ، إذ يتكسر الزمن الحاضر بلحظته الآنية / الآن ، مثلما تضيع الأنفاس وهي تخترق حمى الألم ببقايا رجاء

شارف القلب

عصفوره..

ثم طار

كيف يمضي المغني

وكل العذارى

الى الغيم تمشي

وكل الحدائق ،

نور ونار ..؟ (15)

ازدواج الحلم بالمكان المتخيل المتعلق في الذاكرة، جسّد حالة الاندماج المستمد من الواقع ، لما تضيفه القيمة الدلالية للفظة (العصفور) ، الذي ما أن ينبت ريشه ينطلق عالياً، إذ لا مكان ثابت عنده . إذ إن السياق الشعري للمقطع يترك إحساساً بتقلبات الزمن ووطأته ، بوصفه باعثاً في عدم استقرار النفس، وهي تتحول من مكان إلى مكان ، كما تؤكده البلاغة الاستعارية للـ (الحدائق)، بـ(نور) و(نار) ، بتجسيدها إشراقة الحياة مرة ، والفناء مرة أخرى. فيقارع المبدع وهن الزمن بذاكرة حية / المكان ، بمزيد من التأمل ، باستنطاق

مدخرات الطبيعة ، عن طريق لعبة التخفي والانبهار والدوران في دائرة تضيق لتتسع تبعاً لتشاغل المخيلة [16] .

فيما تسعى قصيدة (أبو الخصيب) في بيان جمالية المكان ، بلغة تنفتح على الفضاء المكاني ، بذاكرة الماضي التي تشكل جزءا من سوسيولوجيا المكان وتحولاته الممتدة في ذات الشاعر ، وتخيله المطلق[17] ، بقيمة دلالية ترتفع إلى استجلاء عالم خاص يتمحور حول تصوير الواقع الذي ينزح إلى ذاتية الشاعر، بينما يعمل على إثارة فكر القارئ ، بتأرجحه بين ماضٍ ساكن، وحاضر متغير:

هو ينبش صمت المناخات،
يلمح سر أجنتها ، يتوازن
فوق جذور الحقيقة .. والكشف ،
يلبس وجه البلاد العريضة ،
يمتد مملكة وقرارا
عينه
وقفة الحب في شرفات العذارى
وجهه أخضر
قلبه أخضر
ويداه القرى المستفيضة بالرمز ،والشعر،
رغم رمال الصحارى
.....
تتألق فيه السماوات
تمنح فضتها للقمر
وتفيض نخيلا .. ضياء .. وماء
تستفيق العصافير شادية:-

عشش الشوق بين (السوابيط)
ينضح في أوجه العاشقين
عسل التمر،واللبن الحلو ، والياسمين[18]

دقة المعنى ترتفع بمثالية المكان التي اجتازت صمته بأنسنته ، بما تركه الشاعر من دلالات (يلبس/ عينه / وجهه / قلبه / يداه) ، فإمكانية اللغة، أسهمت إلى حد ما بازدواجية صورتين للمكان؛ تندرج الأولى نحو صورة حية تشع بالحيوية لمناخ الخصيب، والنخيل المتوهج بالضياء ، ونبع الماء ، مثلما يتوجه الشاعر لتشغيل حاسة السمع ، تحرك عقل المتلقي عبر إطراقة صوت زقزقة العصافير ، إذ يحضر مكاناً آخر يتفاعل وديناميةالحركة المنبعثة من ذلك الجو اللطيف ، بلفظة (السوابيط) ، بما تشير إليه تلك السقوف القصبية ، من ظاهرة تتسم ببعدها الآخر ، المتفاعل بالطابع الريفي واقعاً ووجوداً. فقصدية الشاعر لبث ذلك المشهد ، حتمت على القارئ ، العودة إلى تلك الخلفية ولاسيما البناء البسيط. مثلما يشهد الأسلوب الشعري ، ارتفاعاً بالمعنى المتجه نحو فعل الزمن، بإمكانية تطوره كلما تقدم خطوة. إلا أن تغييره لا يتآتى من إلغاء خصوصية المكان القديم ، وإنما ثمة تداخل بينهما في اللغة الشعرية. فالزمن لا يتوقف ، بحضور المكان ، بجل تفصيلاته [19] .

أما اللوحة الأخرى التي سحبها المكان لمخيلة المتلقي ، تنصرف لمحو المكان من جماليته، إلا بما يتركه المكان من صورة حية ، تبرز بالفعل البشري، بما يحمله من مواقف وعواطف وخلجات ومشاعر وانفعالات الكائن الإنساني ، لذلك فلا يبرز المكان ، شيئا معزولاً مفرداً ، بل يعلن كل تاريخ الإنسان العام والخاص ، المحتمل والممكن [20] ، فيدرك المكان لواعج الشاعر إذ يخاطبه :

كيف تمضي لغير النخيل
العناوين فارغة

فاقترب

إنني تائه ودليل

واقتربت أواصل وجدي المعطر

ثم انحنيت

على أضلع الأرض – مستذكرا –

هذه الأرض تفصح عن نفسها

بامتلاء الجلال

والخصاصيف .. والخضرة النابتة

والجواخين والـــ .....

لم تكن قطعة من حجر

إنها سر أفراح كل البشر [21]

إن اللافت في النص الشعري التساؤل القائم بشأن موضوعة (النخيل) ، فهو جزء مهم ، يمثل صلة الوصل بين المكان وأهله [22] ، بارتباطه بالخضرة أو اللون الأخضر ، بدلالة بث الحياة ، ولما تنتجه تلك الصورة من تكوين ملامح تسهم في خلق سمة خصيبية ، تنبثق من لفظة (الخصاصيف / سلال التمر، والجواخين / مخازن التمر) ، فالتركيز على الحياة السهلة المتمثلة بأهل الريف وبساطة معيشتهم ، أدت إلى تصاعد مستوى اللغة ، الأمر الذي عبّر عن نسبة التحام الإنسان بمكان نشأته ، مثلما عدت تلك الأرض معادلاً موضوعياً ، لطبيعة الإنسان الريفي ، التي أحالت إليها سر أفراحه ، فتتبدى قيمة المكان بأنه ((كيان نتلمسه ونراه))[23] .

كما تبدو ثيمة المكان وعذوبته ، في رمزية الطبيعة بما فيها من عشب ، ونهر، وشجر ، التي أضفت بوحاً آخر لتجليات ذلك الزمن :-

قال لي :-

أترى وجهك الآن في رجفة العشب

في النهر .. قد غصّ بالذكريات ..؟

.....

للحقيقة في راحتيك ندى الصبح

بللّ درب الحكايات ، أجنحة للزمان

أسترح :-

نتقاسم بوح الفوانيس ، دخانها

- واسترحت على جذع نخل قديم -

تحدث عن الأمس ..

.. عن رحلة العمر أبهة ، ومكان (24)

اللحظة الزمنية المتسمة بـ (الآن) شكلت مفارقة شعرية مع حديث ماضٍ بدلالة (قال لي)، و(الذكريات). فجاءت ثيمة المكان بواعز رومانسي يعكس خصوبة التجربة بتلقائية المعنى وبتعبير حي ، تتصل بتداعيات الصور وانعكاسها في عذوبة النهر، التي كانت إيحائية الذكريات، ومجالاً جمالياً، للتوصل إلى حقيقة ذلك الزمن ووضوحه المتمثل بخصائصه السامية، وقناعة الذات ، بعيداً عن التوتر لما تترجمه تأويلية (الفوانيس ، دخانها) ، وبما يقتصر عليه الجلوس (بجذع نخل قديم) التي سعى من خلالها الشاعر إلى الاحتكاك بالواقع ، من خلال إنطاق الذاكرة .

تحولات المكان ، من (الآن – تحدث عن الأمس) ، أنتجت قيمة تعبيرية، على وفق سياق متماسك اللغة، فجاءت دلالة المعنى، بانسيابية، ذات واقع صريح، يبتعد عن المجازية، إذ يتأرجح حديثه بين لحظتين (أمس، هنا)، وهو يعاود الانفصال بين زمنين بقوله:-

سيدي

أمس كنا هنا

مالنا غير حب نبيل

لم نزلْ في الطفولة
نأخذ عدتنا
– الحصير ..
إناء
وأباريق شاي ، وثرثرة في النفوس
نقتفي خطوات الرجال
يجمع البعض منا الحطب
من بقايا النخيل
ثم نجلس
تحت ظلال الشجر (25)

عمل الشاعر على إسقاط سنين العمر الماضية، ليرتقي بالمعنى عبر الزمن الحاضر ، بدوام الاستمرارية لما يعوّل عليه الفعل (لم نزل) ، وكأنه يعيش لحظة التخيل ، واقعاً بفعله الآني ، إذ تنبثق الصورة المختزلة بمشهد من (الحصير ، إناء ، أباريق شاي) ، مثلما يرتبط المكان ذاته ، بنقاء النفوس وانفتاحها على بعض، وهي تعمل على مكوّن اجتماعي ناتج من أثر تلك البيئة/ أبي الخصيب ، فاسترسال الشاعر في تصوير لوحة ذلك المكان ، ما هو إلا تأطير للفكرة التي أراد أن يوصلها للمتلقي ، ليعطي برهاناً أن المكان لا يخلد في الذاكرة ، ولا يشهد إبداعاً إلا لما يتركه من صور جميلة ، تخفيها الذات الإنسانية ، لتعيد خلقها من جديد بمستوى لايقل عن الماضي الآفل .

في أفاق قصيدة (أبي الخصيب) ، يعمد الشاعر في أكثر من مقطع بندائه (ياسيدي) ، ليقف عند نقطة معينة ، تجسد رؤيته الجليلة لذلك المكان ، وعلى وفق صلته الحميمة وحساسيته الصادقة ، يترك بعداً أعمق مما يروم إليه ، فالمكان يرتبط ارتباطاً جذرياً ، بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش ،

للوجود ، لفهم الحقائق ، لبناء الروح ، لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال ، لتنشئة المخيلة وهي تدمج كلية الحياة في صورة مكانية ، إذ لا مكان خارج فعل المخيلة [26]. إذ يقول الشاعر:

سيدي

– وألتفت لكل الجهات –

آه أرجوك معذرة

دعْ تفاصيل عمري على الطرقات

وقصائد حبي ونورستي

وصدى الصوت يوم الخميس

دعْ على معطف الأمس محبوبتي

وهي تمضي إلى صفها في ((رفح))

.....

دعْ غبار الطباشير بين اليدين

دعْ على السطح ساهرة نجمة حانيه

دعْ .....

دعْ..... [27]

إن ((الالتفات لكل الجهات) ، تبعث حركة مكانية ، تمتد إلى داخل ذلك الماضي ، بأحداثه الدقيقة ، إلا أن هيمنة فعل الأمر (دع) ، أدت إلى إزاحة الماضي ، ليلتقط المتلقي ، وضوحا يقترب من الحاضر ، الذي لايكتمل بكينونته ، ولاينهض إلا بتداعيات ذلك الزمن :–

دعْ هنا الكلمات

ما مضى

ظل حقا

يمدّ الحياة

بالهوى .. والجنون.
لأضيع بغابات أيامهم
أصدقاء
كلهم رحلوا في غبار السنين
واحدا.. واحدا.. واحدا
لم أزل أبدا
أذكر الآن أسماءهم
أفرش الوهم دربا (28)

يتمظهر المكان في تفاعلاته الحميمية ، بما تحتشد به من تشكيلة الصور ، الذي شكل فقد الأحبة عاملاً لاستدعاء الزمن ، المتجه نحو (غبار السنين) ، بعلاقته المزدوجة بالرحيل ، إذ ينفصل الشاعر عن نقطة التخيل ، ليصل إلى وعي حقيقي ، غير أن انتقال اللغة الشعرية مجازية العبارة ، أكسب المكان قابليته على الانفتاح ، فأنتجت لحظة وهمية قائمة على الحلم ، تنسجم والمفردة الموحية الصامتة .

بيننا ألف باب وباب
يتناسل بالحب
يكتب فوق الخيال
قصة الأمس .. صحوته الحالمه
.....
هاهو الدمع قد غص في المقلتين
لا أطيق التحدث
أغرق في شهقة الحلم ، أوغل .. أوغل
احلف باسمك أنت الخصيب
– أن المحبة دين –

ليس يجدي التحدث

لا..

فجأة

تلفت نحوي كثيب

مد لي يده باكيا

قائلا

نتقابل ثانية

ثم غاب[29]

فعل الغياب عزز من إبراز قيمة الواقع في إطفاء المكان ، الذي أعلن عن اضطراب حالة الشاعر. فثمة تحول مكاني ، يحمل بعداً رمزياً إلـــى مســـتوى الأحداث بتعالقه مع الموقف الاجتماعي ، مثلما تتحد الشخصيات بالأمكنة ، في نوع من تقابل التبادلات[30]

ويفصح الشاعر (حامد البصري) عن هويته بقرية (باب سليمان) ، ((عبـــر مسار يحفظ التوازن بين الأمس واليوم والغد)) [31] ، إذ يقول :

من باب سليمان

أتذوق طعم النسمه

وأغلق جرحي، بالأيام ألـــ ...!

أتمدد .. أغسل وجهي

وأعود أقول هي القسمه [32]

أعاد الشاعر ملامح المكان وخصيصته على وفق تـــداعيات الحاضـــر، بأنموذج عبارة صريحة ، تناهض حركة الزمن الـــواقعي ، بدلالـــة (أتـــذوق). فإيقاظ الحواس من خلال إحياء الذاكرة ، ترك تناقضاً آخر لمكـــان إغلاقهـــا ، بـــ(أغلق جرحي، بالأيام الـــ ..) .

وضوح الدلالة بدقة معنى السطر الشعري ، أسهم في تمايز النسيج اللغوي عن طريق التضاد المعنوي ، بتداخل الأيام الماضية وتغييبها ، لتقترن اللغة الشعرية ، بتناسقها الإيقاعي المتأتي من بحر المتدارك (الخبب) ، بمكان يتسع لصدق العاطفة ، بما تضفيه لفظة (القسمة) من جمال ذاتي .

ويتحرى الشاعر مكاناً خاصاً للحبيبة في قصيدته (السيدة الجنوبية) ، من خلال بلاغة يبعثها المنولوج الداخلي بين الشاعر وذاته ، إذ يعانق وجدانه بخيال شعري:-

كنتِ مأواي والشجره
هل تكون
وحدها الثمره ..؟
هل تكون .. ...؟
...
آه ما أقرب السنوات
تتهادى الغصون
فوق أرضي
أمد يدي ... فتغيب
وتبقى الجذور العريقه (33)

الشعور النفسي في بُعده العاطفي ، صاغ تركيباً لغوياً لمكان يقتصر في ذاتية الحبيبة ، إذ ينعدم تواجده بغيابها ، مثلما كانت الحبيبة هي المكان نفسه ، والخصب ذاته لما تؤكده (الشجرة) ، من باعث تعبيري ، بارتباطها بموضوعة الأرض ، بيد أنها أرض جدباء ، لتعالقها ببعُد الحبيبة ، إلا أن الجذور الأصيلة لا تنفي وجود المكان ، حسبما يشير إليه المعنى وسياقه بـ :-

لبة الحلم أنتِ ، وبين التوهج والظل
تبقين كل الحكايات تبقين لي

جمرة البعد .. والقرب .. ساحرة الكلمات (34)

ينتقل الشاعر بين منطقتين (التوهج) و(الظل) ، التي تتمظهر خلفها علاقتان تتجه الأولى لحضور الحبيبة ، فثمة ضياء منبثق. بينما تشير الأخرى إلى غيابها ، فتتداعى صورة الظل التي تتمثل بالعتمة ، إلا أن باعث الحب يبقى فاعلاً في إلغاء قضية تنافر الأماكن ، بجاذبية استرجاعية، ونسيج فكري ينتج مكاناً آخر في لحظة التحول .

طريقة الأداء ، وبراعة حسن اختيار اللفظة ، جعل وصل المحبين قائماً في كل الخطوات ، فتشهد الذات دوامة الصراع ، بوجع ذاكرة تتنفس أصداء الماضي :-

فوق منعطفات الشوارع .. بين القرى ومنازلها
كنت محتفظا بالصداقة ، والأرض حافية
أشتري خطوة .... خطوات
لأرى زهرة للوصول
.....
في ارتعاش الصدى
وعلى غفلة ضاع مني الطريق
فارتوت نبضة الغير مني الحقيقه
أنت تدرين حلمي طليق
.....
ولكنني خلف صفصافة الانتظار
أتطاير ملتهبا
.....
ينعقد القلب فوق دمي
وأموت وحيدا (35)

يظل المكان شاخصاً على وفق فلسفة الشاعر تجاهه ، مثلما يتأسس إدراكه ، بمستواه الحقيقي من خلال اختزال وتجاوز؛ اختزال الماضي المستمد من (أشتري الخطوات .... لأرى زهرة للوصول)، والسعي إلى تجاوزه ، بدلالة (في ارتعاش الصدى ، وعلى غفلة ضاع مني الطريق) ، فاستقصاء الذكرى كان معولاً على يقظة الذات المتألمة ، التي سعت وبامتياز ،عبر لغة بليغة ، تفصح عن العدم ونقيضه في استجواب الذات الشاعرة ، بعيداً عن كل ما يمت إلى لحظة محوها .

(أموت وحيداً) ، تحيل تلك العبارة ، عبر بلاغة محكمة ، وتحليل دقيق ، لفلسفة الموت المحتمة بوجود الآخر، ونفيه / أي الحبيبة ، الذي يعلن حضورها عن معرفة الآخر لذاته / الشاعر:-

يصطفيني الغبار
يتباطأ عمري ،
ويلغي مواعيده .. بين نار ونار
يرتديه الرصيف .. ويمشي وحيدا
نحو ذاكرة حين المسها
تولد الأرض خطوتنا
في شروخ السماء
أتوهم إني الزمان الشفيف
لن نبدل أعشاشنا
الجراح مطابقة
والفصيلة واحدة (+ ب- +ب-) (36)

يفصح المكان بملامحه عن (الغبار) الذي ينطوي تحت تأويلية العبارة ، تلك المراحل الزمنية ، التي مرت بتوالي الأيام ، فمضامين الحلم العالقة في الذاكرة ، عملت على تكوين نشوة التواصل ، إذ يولد المكان من جديد ، ويلتحم

بالزمن ، إلا أن تدفق الوعي تجاه فعل العقل ، أسهم بإغلاق الخيال ، ليحرر الذات إلى نقطة ترسخ الحقيقة ، وتمت إلى جاذبية المتلقي ، الذي يندمج مع أدق التفاصيل المشحونة بالجراح والجنون :-

والتفاصيل تخترق القلب
مشحونة بالجنون
آه سيدتي
اسبقيني إلى العطف
واللطف
والكلمات الرقيقه
فالعواطف لا تغمض الجفن
لا تطبق العين
سيدتي
أرسلي
فوق غصن الهواء
طائراً
قمراً
خبزاً
يمنح الروح خيط عزاء (37)

يفصح المقطع الشعري عن رغبة الشاعر المتأتية من مكان، كان قد جمعهما ، فالشحنة العاطفية المتولدة في ذاته ، تنم عن مدة زمنية، قد أسقطها في المضمون الدلالي للنص بتعبير (أرسلي ، فوق غصن الهواء) ، بسياق مجازي ، ينوب عن لهيب الأشواق ، فـ (الطائر) و(القمر) ، تتسمان ببعدهما المكاني المعلق الذي يشير إلى الفضاء الواسع ، فثمة ازدواج موضوعي بين بُعد الحبيبة وتلك المسافة ، كما يشكل (الخبز) ، باعثا آخر ، لضرورة ديمومة الحياة .

الاستعمالات المجازية قادت اللغة إلى الحقائق ، بقيمتها الإيجابية ، والتي تنحرف مرة أخرى بدورها الإيحائي ، لتترك الشاعر في خيط من العزاء، عسى أن يأتيه بطيف من الحبيبة ، كما يقوم المكان حين تستعيده التأملات بالكشف لا عن وجوده الواقعي ، بل عن بعده العاطفي ، الذي يتمثل في الموجودات الشعورية والجمالية ، فهو يعيش في داخل الإنسان ، كمجموعة من ردود الأفعال التي لا تكرر الوجود المادي المشخص له ، بل بوصفه ذكرى ، فتصبح الصورة المكانية ذات طبيعة شعرية [38] .

الخاتمة :

إن الاشتغال بالمكان لا يعني الوقوف على ظاهريته ، وإنما يتكرّس حضوره ، بقدر ارتباطه بالذات الإنسانية ، التي تصور الأمكنة ، على قدر التأملات ، وحيويتها ، مثلما تعيد بناءه ، على وجه خاص ، بما ترصده تلك الانفعالات المختزلة ، عبر منطوق الذاكرة ، في استعادة الماضي ، فتصبح الذكرى هاجساً شعرياً .

يتشخص المكان في النص الأدبي في فاعليته الثقافية ، وهو يلامس واقعاً ، ينشطر إلى جهتين ، تخيلية وأخرى حقيقية ، إذ يتوخى الوعي دوره في الترابط بين تلك اللحظتين ، عبر تتابع يُعاد تركيبه بوساطة الفعل العقلي ، وإيحاءاته ، إذ تلعب تلك التفاصيل بخصوصيتها في بث حيوية المكان ، وهي تُعيد إنتاجه بأسلوب تصويري ، يُثير الأحاسيس ، بما يؤسسه من أنموذج أبداعي ، يرتقي بنمطيته عن الزمن الحاضر ، ليتوجه في استيعاب مكثف ، منبجساً من عالم ماض ، ليعلن عن زمن آخر يقترب من صدق العاطفة التي عملت على إزاحة الزمن الراهن ، فثمة تداخل لا إرادي بين المكان والزمن ، بالانفتاح على بعضهما ، بلحظة شعورية ومفردة تضفي طابعاً حقيقياً

الهوامش :

(1) ينظر : شحنات المكان (جدلية التشكيل والتأثير) ، ياسين النصير، بغداد ،ط1 ،2011 : 90،91
(2) تراتيل الأيام المنسية ، حامد عبد الصمد البصري، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ط1، 2000 :5
(3) تراتيل الأيام المنسية : 5- 6
(4) ن. م :9
(5) ينظر: شحنات المكان : 135

(6) تراتيل الأيام المنسية: 15
(7) ينظر : الصورة في شعر الرواد (دراسة في تشاكلات الصورة) ، د.علياء السعدي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 2011 : 305
(8) تراتيل الأيام المنسية : 27 ، 28
(9) ن. م :30
(10) ينظر :تجوال الذاكرة (المكان في النص) ، قيس مجيد المولى ، دار الينابيع، سورية ــ دمشق ، ط1 ، 2009 : 97
(11) ينظر: تشظي الرائحة .. سلطة المكان (قراءة في فخاخ الرائحة ليوسف المحيمد) ، مراجعة :محمد الدبيسي ، البحرين الثقافية ، العدد42 ، 2005 : 187
(12)تراتيل الأيام المنسية : 31 –32
(13) ينظر : دليل الناقد الأدبي ، ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب ط5 ، 2007 : 182
(14)تراتيل الأيام المنسية : 36 – 37
(15)تراتيل الأيام المنسية ،37 – 38
(16) ينظر: من ذاكرة المكان (زيد الشهيد في الرؤى والأمكنة) ، د.فاضل عبود التميمي ، أفاق أدبية، س1 ،ع2 ،2011: 103
(17) ينظر: من ذاكرة المكان : 106
(18) تراتيل الأيام المنسية: 45، 46
(19) ينظر : إشكالية المكان في النص الأدبي (دراسات نقدية) ، ياسين النصير ، ط1 ، بغداد ، 1986 : 321
(20) ينظر : ن : 393
(21) تراتيل الأيام المنسية : 46
(22) الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف ، صالح إبراهيم ، المركز الثقافي العربي ، ط1، 2003 : 55
(23) شعرية الفضاء (المتخيل والهوية في الرواية العربية) ، دراسة نقدية ، حسن نجمي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 2000 : 53
(24) تراتيل الأيام المنسية :47
(25) ن : 47 – 48
(26) ينظر: إشكالية المكان في النص الأدبي : 395
(27) تراتيل الأيام المنسية : 49 ،50
(28) ن. م : 50
(29) ن. م : 51
(30) ينظر: شعرية الفضاء (المتخيل والهوية في الرواية العربية) : 140
(31) الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف : 53
(32) تراتيل الأيام المنسية: 56
(33) ن . م : 70
(34) ن. م : 71
(35) ن. م: 72 ، 73
(36) ن. م: 73
(37) ن. م : 74
(38) ينظر : جماليات المكان عبر ذاكرة الطفولة (قراءة في الانبهار والدهشة) لزيد مطيع الدماج ، د. علي حداد، ، الأقلام ، ع2 ،2012 : 88

المصادر

1- إشكالية المكان في النص الأدبي (دراسات نقدية) ، ياسين النصير ، ط1 ،بغداد ، 1986

2- أفاق أدبية ، فصلية تعنى بمشهد الإبداع والأدب ، العراق ، بغداد ، ع2 ،2011

3- الأقلام ، فصلية فكرية ثقافية عامة ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ع2/أيار/ حزيران/ تموز/ ، 2012

4- البحرين الثقافية ، العدد42 ، 2005

5- تجوال الذاكرة (المكان في النص) ، قيس مجيد المولى ، دار الينابيع، سورية ــ دمشق ، ط1 ، 2009

6- تراتيل الأيام المنسية ، حامد عبد الصمد البصري، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، ط1، 2000

7- دليل الناقد الأدبي ، د.ميجان الرويلي و د.سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط5، 2007

8- شحنات المكان (جدلية التشكيل والتأثير) ، ياسين النصير، بغداد ، ط1 ،2011

9- شعرية الفضاء (المتخيل والهوية في الرواية العربية) ، دراسة نقدية ، حسن نجمي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 2000

10- الصورة في شعر الرواد (دراسة في تشاكلات الصورة) ، د.علياء السعدي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط1 ، 2011

11- الفضاء ولغة السرد في روايات عبد الرحمن منيف ،صالح إبراهيم ، المركز الثقافي العربي ، ط1، 2003